سبيل إلى معرفة الله

تامر جابر محمود

وقفنا أيها القارئ الكريم في الجزء الأول من المبحث، عند كون باطن عوامل الفتك المحتملة بالإنسان مُخالفٌ لهذا الظاهر الذي يسعى لإفنائه. بل، ويمثل في الحقيقة عوامل إحيائه، وتيسير حياته على الأرض التي خُلقت له بكليتها، وتمهيد لمُقامه فيها.

واليك البيان:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [1]

لقد قضت النظرة العلمية لمسألة وجود الثعابين والحيات وسائر المخلوقات المُفرزة للسموم القاتلة، بأنها ليست جوهر المشكلة (إن صح استخدام تعبير مشكلة)، بل جوهر الحل في الحقيقة [2]. فهذه المخلوقات وإن كانت سامة مميتة، تُمثل في ذات وجودها حلا لمعضلة المرض. فسُم العقرب أمل الطب في علاج سرطان الدماغ، وبسُم الحلزون الرخوي مصل مُثبِّط للألم أفعل من المورفين ألف مرة بدون مبالغة ، وتتوافر في أنواع سمومه التي تتعدى المائة ألف، عقاقير لعلاج "خرف الشيخوخة" والسرطان. هل تعجَب من ذلك ؟، إذا إليك المزيد من دواعي الذهول: إن بخلقة هذا الحلزون التي تحسبه بلا قيمة، سلاحاً من شدة فتكه درس الأمن القومي الأمريكي استخدامه بالحرب البيولوجية. ثم ها هو العالم G.B من جامعة هاواي يُريدك ذُهولاً. فبعد أن أقام مزرعة تحت الماء لدراسة أنواع هذا الحلزون، يُصرِّح مشدُوهاً أنه لو توجَّب عليه تصنيع السموم التي تُفرزها أنواع الحلزون التي يدرسها، لاستغرق منه ذلك ألف سنة في الجهد الجسماني وحده هذا فضلاً عما سيتكلفه ذلك من موارد أخرى. في الوقت الذي تُقدمها هذه الحلزونات مجاناً لبني الإنسان، وبلا مقابل.

ثم أنه قد دُرست بسم الثعابين علاجات واعدة لأمراض الكلى وداء السكري، وفشل القلب. وكُشفت عقاقير مُنظِّمة لضربات القلب بسم العناكب. وكشف عالم الأحياء الجزيئية "برايان فراي" من جامعة ملبورن الاسترالية، أن بسُم أنواع من السحالي السامة (السحلية المُخرِّزة وتنين الكومودو السام) عقاقير هامة لعلاج السُكَّري. وكشف غيره أن ببشرة الضفدع مضاداً حيوياً يفوق فاعلية البنسلين مائتي مرة.

وهاهو العالم Atman.Shah من المركز الطبي بجامعة شيكاغو يحقن أحد مرضى النوبات القلبية بسم الأفاعي المجرَّسة Integrilin بعد معالجته، إذ كُشف به مصل ينظم عمل القلب، ويوسع شرايينه التي انسدت ولم يعد يصلح معها الدعامات وحدها.

وكشفت العالمة "آنجيل ياناجيهارا" من جامعة هاواي، وبعد دراسة لعشر سنوات متواصلة، أن بسُم قناديل البحر الشيرونكس السامة، والتي قد أتكون الأفتك سُمية بين كائنات الأرض كافة، مصل يُوقف تفجُر خلايا الدم البيضاء والحمراء، ويُعيد مرضى أزمات قلبية بعينها للحياة الطبيعية بعد أن أوشكوا على تجاوز الحدّ الفاصل بين الحياة والموت.

وقد أثبتت فرضيتها العلمية عملياً، إذ قامت وفريقها البحثي بحقن أحد فئران التجارب بنوع من السموم التي تقتل في دقائق معدودات مع مراقبه وظائفه الحيوية وعمل القلب، حتى كاد يفارق الحياة من أثر السم.

ثم حقنته بالمصل الذي استخرجته من سم قنديل الشيرونكس البحري، وكم كانت المفاجأة التي وثَّقتها قناة ناشيونال جيوغرافيك، أن عادت كافة العلامات الحيوية للفأر طبيعية، وحُملَ (في مشهد لا يُصدقه إلا من رآه) ليوُضع في قفصه وقد استفاق دون أية شواهد على استمرار الآثار المدمرة للسم الذي حُقن به. أضف لما سبق مثبطات مرض ضغط الدم التي نتناولها في حبات الدواء ، والتي أتت من محاكاة آلية سم واحدة من أشد أفاعي الكوكب سُمِّية ، تعيش بأمريكا الجنوبية✷.

لكل سُم إذاً آلية عمله المُركَّبة فيه ، والموضع الذي يحمله إليه الدم فور دخوله الجسم ليؤثر فيه. وكل ما عليك، اكتشاف هذه الآلية وطرح الجزء القاتل بتغيير رسالته الجينية، لتحصل على أداة مذهلة التأثير ، تعرف طريقها جيدا داخل الجسم، وتصل لمواضع ربما استحال على مبضع الجراح الوصول إليها ، بل وربما لم يُفد وإن وصل إليها [3] هذا المبضع، كحالة شريان القلب المذكورة آنفاً.

فماذا إن لم ينشغل المسلمون بهذه الدراسة المُفصَّلة للخلق وتسخيره ؟

علاج انسداد شرايين القلب باستخدام سم الأفاعي المجرَّسة المعروف باسم Integrilin

صورة مجهرية لإبر قنديل البحر الشائكة بأشواكها الحاقنة للسم

صورة للفأر وقد قارب على مفارقة الحياة بعد حقنه بالسُم

صورة الفريق البحثي مذهولاً لعودة العلامات الحيوية للفأر طبيعية بعد أن أوشك على مفارقة الحياة، لحقنه بالمصل المستخرج من قنديل الشيرونكس البحري السام

العالم برايان فراي منكباً مع مساعده ، في استخراج السم من السحلية المخرزة

بلا مواربةً، ستنقلب ضدهم سنن الطبيعة، لتذيقهم من هذه المخلوقات ما يُنغص عليهم معاشهم (بل ومعاش الآخر الذي قصَّرنا في إبلاغه ديننا) في كوكبٍ افتُرض أنه مُسَخَّرٌ بكل ما فيه.

والقرءان على ذلك لم يتركك مُحتاراً أي الطرق تسلك. بل ومن يومه الأول الذي بُلِّغَ فيه على لسان رسولنا الكريم، بيَّن لك أي الدروب تطرُق، وأي الخُطى تُقدِّم:

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ الأعراف: 185

فواعجباً لأمة تَعرَّفَ إليها ربها مباشرة، بأنه هُو الذي ابتدأ كل شئ بعلمه وبحكمته، وأنه هُو الذي أعطى كل مكون من مكونات هذا الوجود وُجوده، وصورته، ووظيفته، وأنه هُو الذي قدَّرهُ تقديراً، وأنه هُو الذي هداه لدوره، ثم هُو من جَمَّله، ثم هُو من صرَّف أُموره وقدَّرَ مسالكهُ ومآلاته. فواعجباً لأمة عرفت هذا كله عن ربها بإخبار مباشر من أول يوم لها ، ثم ألقت بكل ذلك وراء ظهرها وأسمته علوماً دُنيوية. ثم ذهبت تتعرف على ربها بأسمائه وصفاته من المعاجم والقواميس اللغوية. ولكن لم العَجَبُ، أليست هي الأمة الوحيدة التي جعلت من الكلام علماً ...؟

لا غرو إذاً أنها أمة خالفت الطريقة القرآنية، وإلا فانظر لقوله تعالى في تجربة الإعداد لسيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام، إذ قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ الأنعام: 75

الكون ... وَهْبَة الله لعبده المؤمن، فمن تقبل العطيَّة ؟ !

فانظر هداني الله وإياك كيف أراه الله ملكوت السموات والأرض، ونقله لمرتبة اليقين. حتى إذا دقت ساعة الاختبار وأُلقيَ في النار وبادره جبريل بعرض العون، قال له «أما لك فلا ، وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل».

وكيف لا ... ، ألم يسبق له أن رأى بعينه مما في السموات والأرض ما جعله من أهل اليقين [4] ..؟!.

فالقلب مُصَمَّمٌ بطريقة ربانية خاصة، يقبل بها الإيمان وحقائقه ويزيد ويرسخ إن جاءته على النهج القُرآني وحده، ولربما لم ينفعل بها بالكلية إن أتته من سبيل آخر وإن كانت هي هي ذات الحقائق. والفرق بين الإيمانين، هو الفرق بين الإيمان السطحي غير المتبصِّر، وبين إيمان أهل الولاية الخُلَّص.

فمن استدل من خلقة الجنات المعروشات وغير المعروشات، ومن خلقة الزيتون والرمان متشابهاً كان أم غير متشابه، من استدل بهذا على ربه وتعرَّف عليه (والمقصود هنا المعرفة الشاملة بالله، وليس القدرة والعظمة وحدهما)، كان من أهل الدين الخالص. وأما من أتته كل الإخباريات الربانية، وقرأ بالقرآن كل سُبُل التعرف إلى المشيئة الربانية، ثم ألقى بكل ذلك وراء ظهره، والتفت لمعاجم اللغة يبحث فيها عن ربه وخالقه. فقد خالف الطريقة القرآنية، وتجاهل أوامر الله بالنظر لكافة تفاصيل الوجود. من النظر إلى خلقة الإبل، إلى النظر إلى طعامه، وإلى يَنع الثمر إذا أينع. وفات عليه طريق دلوف الإيمان الصادق إلى القلب.

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ البقرة: 164

لقد فات البعض أن الله هو من خلق القلب وعيَّنَ له سبيلَي الإيمان والإنكار، وأن تلك العملية ليست بالعملية الآلية التي تشبه عمل المحركات والتروس، ولا التي يحكُمُ بها المرء قلبَه. لا. فقد تأتي الآيات ساطعة، ولا يُصاحبها الإيمان ولا التصديق. أنظر لقوله تعالى:

﴿ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ الأنعام: 109

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ الأعراف: 146

نعم قد تأتي الآية الساطعة، ثم يُنكرها القلب ويردها، ويميل للغي. وانظر لقوله تعالى:

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ الأنفال: 24

فلا الإيمان بالعملية الآلية، ولا القلب بالآلة التي صاحبها حُر في توجيهها وقبول الإيمان كيف شاء ورده متى شاء.

وباب الأسماء الإلهية باب عظيم، لا يُفتح إلا لمن شرفهم الله تعالى شرفاً لم يبذله لسائر خلقه. من ذلك قول النبي في بعض أسماء الله "أو علَّمته أحداً من خلقك"، فدلالة نص

1 - سورة البقرة ، الآية 29 .

2 - هذا المقال تعليق على وثائقي ناشيونال جيوغرافيك " السم : القاتل الطبيعي " . فيُرجى مشاهدته، فالصورة خير من ألف كلمة.

✷ ألهذا خلقنا الله شعوباً وقبائل ...؟ للتعارف، ولتبادل النفع بدلاً من استغلال واحدنا الآخر ؟ .

3 - قال تعالى " وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه " ، فمَن غير وكالة ناسا لأبحاث الفضاء كرَّست مواردها وعقول أفرادها ودهوراً من العلم والبحث والدراسة التي لاتكل، لاستكشاف هذه السموات الرحيبة المسخرة بما فيها ؟. لقد قَصَّر المسلمون إزاء القرءان وما وُهُوا والله.

4 - وقد قيل أن الملكوت هو خصائص الأشياء ، وبهذا تشير الآية لتجربة أعمق بكثير من مجرد استعراض ظاهر مُلك الله الرحب واتساعه. كما تُمهَّد لتجربة إبراهيم مع النار ، إذ سبق له أن عرف من أودَعَ الخصائص في الأشياء ، وبالتالي من وحده يستطيع تغييرها ، فتوجَّهَ له وحده بطلب العون.